# قراءة الشعر وأثرها في تطوير الذوق الجمالي وتحقيق الاستقرار النفسي

# Reading Poetry and its Impact on the Development of Aesthetic Taste and Psychological Stability

أ.د. محمود الحسن

أمين تحرير مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

By :Prof.Dr.Mahmoud Al-hassan

## ملخص البحث

من يقرأ الشعر قد لا يتنبَّه إلى أعظم فوائده وألطف خفاياه، وربَّما يحسُّ بها ولكنه لا يملك الكلمات الكافية للتعبير عنها والتصريح بها. وتلك الفوائد اللطيفة تتمثل في بناء الحسّ الجمالي وتحقيق التوازن النفسي، عن طريق امتصاص الفيضان العاطفي الذي يتراكم في القلب من المواقف التي يمرُّ بها الإنسان في طريق الحياة، وهذا الفيضان العاطفي غالبًا ما يضطرب في القلب ويختلط بالوساوس والأوهام، ويتحول أحيانًا إلى عاصفة تنكِّد على الإنسان طريقَ العبور إلى جزيرة السعادة، التي يرجو فيها أن يحظى بابتسامة الدُّنيا، ومُسالَمَة الزمان. لعلَّ أجمل أبيات الشعر هي تلك التي يجد فيها الإنسان ما لا يجده في النثر، فالحكمة والعلم والمواعظ والفلسفات والنصائح موجودة في النثر، وهو صالح لتقديمها في صور صافية، وألوان متناسقة، ووضوح يستحق الإعجاب.

## Abstract

The person who reads poetry does not pay attention to its greatest benefits and nicest secrets .He may feel them , but does not have enough words to express and reveal them .These nice benefits are represented by building aesthetic sense and achieving psychological balance by absorbing the emotional flood accumulated in the heart from the situations that human beings pass through in life . This flood is often disturbs heart and fills it with anxiety and delusions . Sometimes it turns into a storm that puts obstacles in human being›s passing route to the island of happiness in which he wants to have a smile from life and a peaceful time .

The most beautiful poetry lines perhaps are those in which a human being finds something which he could not find in prose . Wisdom , science , moralizing speech , philosophy , pieces of advice are found in prose which is capable of presetting them in a clear image , consistent colors and a clarity worth the admiration.

## المقدمة

هل سأل الإنسان نفسه مرة: لماذا يقرأ الشعر، وما الذي يُعجبه فيه؟ وهل فكّر يومًا لماذا يميل إلى قصائد دون غيرها؟ ولماذا يستهويه بيت أو مقطوعة في لحظات ثم يطلب غيرها في لحظات أخرى؟ وربما يوجد من لا يُحبُّ الشعر ولا يجد متعةً في قراءته، فهل يعلم مقدار ما فاته من خير وفوائد؟

قد يجد من يتذوَّق الشعرَ ويُدمن عليه أجوبة مجملة عن هذه التساؤلات، تتلخص في أن القارئ يكتسبُ من الشعر فكرة جديدة، أو لغة فصيحة، أو حكمةً مفيدة، أو جوابًا مُفحِمًا، أو صورة بليغة، أو طُرفة مسلِّية، أو موقفًا نبيلاً، أو سلوكًا صالحًا للاقتداء.

وهذه الفوائد موجودة فعلاً في الشعر، ويختلف مستوى إدراكها بين قارئ وآخر، وبين شابّ وكهل، وبين رجل وامرأة، وبين حزين يائس وسعيدٍ متفائل.

ولكن من يقرأ الشعر قد لا يتنبَّه إلى أعظم فوائده وألطف خفاياه، وربَّما يحسُّ بها ولكنه لا يملك الكلمات الكافية للتعبير عنها والتصريح بها. وتلك الفوائد اللطيفة تتمثل في بناء الحسّ الجمالي وتحقيق التوازن النفسي، عن طريق امتصاص الفيضان العاطفي الذي يتراكم في القلب من المواقف التي يمرُّ بها الإنسان في طريق الحياة، وهذا الفيضان العاطفي غالبًا ما يضطرب في القلب ويختلط بالوساوس والأوهام، ويتحول أحيانًا إلى عاصفة تنكِّد على الإنسان طريقَ العبور إلى جزيرة السعادة، التي يرجو فيها أن يحظى بابتسامة الدُّنيا، ومُسالَمَة الزمان.

ولكن هذه الفوائد ليست موجودة في كلِّ ما قيل من شعر، بل هي مكنوزة في بعض ألوانه، ومزهرة في بعض موضوعاته، وهذا النوع من الشعر لا يملك القارئ إلاّ أن يُقابله بالإعجاب، وأن يصفه بالجمال. فما ضوابط الشعر الذي يحوي تلك الفوائد، ويؤثِّر تأثيرًا مباشرًا في البناء النفسي والشعوري عند القارئ؟

### الشعر الحسن وموقعه في النفس:

لعلَّ أجمل أبيات الشعر هي تلك التي يجد فيها الإنسان ما لا يجده في النثر، فالحكمة والعلم والمواعظ والفلسفات والنصائح موجودة في النثر، وهو صالح لتقديمها في صور صافية، وألوان متناسقة، ووضوح يستحق الإعجاب.

أما الشعر فله وظيفة أخرى هي أن يُبحِر عليه الإنسان، عندما يعجز النثر عن بلوغ عالم القلب والوجدان، وأن يستعين به على تطهير قلبه من ثقل العواطف المضطربة ونزعات النفس الصاخبة.

فالشعر الحسن هو الذي يفيض بعاطفة صادقة، فتظهر بين سطوره عبرات الروح لا عبارات الأفواه، وتتجسد في معانيه حرقة القلوب، لا صرامة العقول، ويذوبُ على محرابه كبرياء النفوس، لا مسائل العلوم، ويشعّ في جوانبه وميضُ الأمل ونار الألم وصرخة الخوف وضجّةُ التّحدّي وسكينة الرّجاء.

ومقياس هذا النوع من الشعر أن الإنسان يردِّده في نفسه حين يخلو مع ذاته، ولا يملّ من التواصل معه في لحظات الخلوة والتأمل. وذلك لأنه يُلامس حزنًا كامنًا في كل النفوس البشرية، فيدخل القلب بلا استئذان، ومن غير أن يطرق باب العقول.

ولعلَّنا نتساءل لماذا يتفاعل الإنسان مع هذا النوع من الشعر؟ وكيف يصل عبر أوديته إلى راحة النفس واستقرار القلب؟

إن النفس الإنسانية مفعمة بلا شك بإحساس الحزن، الذي يتسلَّل إليها من طرق خفيّة قد لا يكتشف العقلُ معظمَها. ولعلّ من أهم أسباب الحزن الخفي الخوف من الموت ومما وراء الحياة، والإحساس الدائم بأن الأرض تتسع لأبعاد الجسد ولكنها تضيق عن تطلّعات الروح، ورؤية أن السعادة محدودة بقيود الزمن وملسوعة بنيران الكآبة ومحفوفة بأشواك الألم ومختبئة أحيانًا بعيدًا عن الواقع، وربما خلف أسوار الخيال.

وتلك الطرق الخفية للحزن تولِّد طاقة انفعالية لا يدرك الإنسان أسبابها ولا يعرف طبيعتها. فيُسيطر اليأس على قلبه، ويستولي الهمّ على نفسه، وهو لا يدري ما حلّ به، ولا ما نزل بساحته. وأمام اليأس والهم تتصاغر همته ويسري الضعف في عروقه ويهوي في ظلمات الانطواء مستسلمًا لسطوة الحياة.

وربَّما يستجمع قوته مرّةً فيصرخ في وجه الحياة متوشِّحًا بسيف التمرُّد، ولكنه سرعان ما يمرّ به الزمن ساخرًا من تمرّده مستهزئًا بثباته، فتخور قواه من جديد، وتستمر المواجهة وفي كل مرّة يعود فيجد نفسه مثقلةً بجراح جديدة ومكبّلةً بقيود لم يعهدها من قبل، فيتراكم الألم وتعظم المصائب، ويحصد الإنسان في كل مواجهة مزيدًا من الأسى والخيبة والاضطراب.

فإذا استمرّ تراكم الحزن ثقل على الإنسان حمله، فيميل إلى الاستراحة في زوايا العزلة وأنفاق البكاء وكهوف الحظ العاثر. وفي هذه الحالة لا تقتصر معاناة الإنسان على الاضطراب النفسي، بل تكون قد تطوَّرت إلى الصورة الأخطر التي تتمثل في بدء التلاشي والانهيار.

فمسؤولية الإنسان ألا يجعل الحزن يتراكم على قلبه، وألا يسمح له بأن يتحكَّم بمصيره. ويكون ذلك بالتخلّص المستمرّ من أكداسه بطرق كثيرة منها قراءة الشعر.

وفي هذه الصفحات سيظهر أثر قراءة الشعر في تحرير النفس من قيود الكآبة والإحساس بالهزيمة أمام الحياة، وصولاً إلى الاستقرار النفسي.

## أولاً – الشعر الحزين:

إن الشعر القادر على تحرير النفس من قيود الحزن والألم هو الذي يفيض بعاطفة حزينة صادقة، ويتلخص أثره في أن الإنسان حين يقرأ أبياتًا من هذا النوع يحسُّ بوجود عالم يتّسع لشكوى الروح المتعبة، فيتفاعل مع الأبيات وهو يشعر بأن صاحبها كأنه أحسَّ بمعاناته فوصف له ما يجول في نفسه وما يتحرَّك في أعماقه، فلا يملك القارئ إلا أن يفتح لهذا الشاعر أبوابَ القلب بعد أن اطمأنَّ إليه، فتنغمس روحه في عالمٍ ألوانُه تُشبهُ ألوانَ نفسه، ونغماته تُحاكي نغمات إحساسه باللَّوعة والضِّيق، فيقضي في هذا العالم لحظات من الحياة، ثم يُتبعها بلحظات من التأمل الهادئ الذي يُشبه حالة من يستريح بعد التعب وهو راضٍ عما أنجز من أعمال مفيدة، ثم يخرج بعد ذلك إلى الواقع وقد ألقى بعضًا مما كان في قلبه من حزن وضيق في عالم القصيدة، وبعضًا آخر في لحظات التأمل بعد الفراغ من القراءة، ويعود إلى الواقع والرضا ينسكب في قلبه وإحساسه، والراحة تجري في نفسه ووجدانه.

ومن أمثلة الشعر الحزين قول المتنبي مصوِّرًا ضيقَه وحزنَه في يوم العيد:(١)

عيدٌ بِأيّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ
بِما مَضى، أم لأمرٍ فيكَ تَجديدُ

أمّا الأحِبَّةُ فالبَيداءُ دونَهُمُ
فلَيتَ دونَكَ بِيداً دُونَها بِيدُ

لَم يَترُكِ الدَّهرُ مِن قَلبي ولا كَبِدي
شَيئاً تُتَيِّمُهُ عَينٌ ولا جيدُ

يا ساقِيَيَّ أخَمرٌ في كُؤوسِكُما
أم في كُؤوسِكُما هَمٌّ وتَسهيدُ

أَصَخرَةٌ أنا مالي لا تُحَرِّكُني
هذي المُدامُ ولا هذي الأغاريدُ

إذا أرَدتُ كُمَيتَ اللَّونِ صافِيةً
وَجَدتُها وحَبيبُ القَلبِ مَفقودُ

ماذا لَقيتُ مِنَ الدُّنيا وأعجَبُهُ
أنّي بِما أنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ

في هذه الأبيات تتجلّى المعاناة في أعلى صورها، إذ تظهر فيها حسرةٌ على سعادة مفقودة، وخيبة أمل لم يتحقّق، وألمٌ يُحسّه كلُّ من ذاق مرارة الفراق، وضعفٌ يأخذ بالنواصي إلى خيار الهزيمة والاستسلام، وغربةٌ يشعر بها من امتلك حسًّا مرهفًا في مجتمعات تسخر من المبادئ والقيم، وتكوي المبدعين بنظرات الحسد.

وما أصعب أن يكون نصيب الإنسان الحسرةَ والخيبة والضعف والألم والغربة في يوم يُفترض فيه أن يكون على موعد مع السعادة، فيراها تتجاهله في حين تنفث عِطرها في القلوب، وترسم ملامحها على الوجوه، وتنشر حللَها في كلّ مكان حوله، ولا يكون نصيبه إلا اليأس والعبوس.

وحين يقرأ الإنسان هذه الأبيات لا يجد العقلُ فسحةً كي يُلِمَّ بالجزئيات والحوادث وما بينها من مناسبات، ويتّخذ منها مقدِّمات يبني عليها محاكماته المعهودة في البحث عن الحقائق والوصول إلى الأحكام والنتائج. وإنما تقتصر وظيفة العقل على نقل لغة الشاعر الممتزجة بأحاسيسه، فإذا وصل الإحساس إلى وجدان القارئ توقّف العقل عن البحث، وأفسح المجال أمام النفس لاستقبال أحاسيس الشاعر واستلهامها، فتخرج الانفعالات من مكامنها وتمتزج بنظائرها، فيتلوّن القلب بألوانها، وينقبض بتأثيرها، فإذا بالقارئ يتمثّل لحظات الفراق والغربة والضيق ويُسلِم قلبَه لها، فتنتشر فيه وتتحكّم وتهيج وتضطرب، ثم تمتزج وتتّحد، ثم تصفو وتهدأ، ثم تتحوّل إلى إحساس غامض لا يُصاحبه حزنٌ أو فرح، ثم إلى طمأنينة ورضا، فتميل النفسُ إلى الراحة، ثم تتصل بالواقع وقد ألقَت ما فيها من حزن، واستعادت ما تأنس به من سعادة وأمل.

وموضوعات الشعر الحزين كثيرة ومتنوعة، وغالبًا ما تتجلّى في لحظاتِ الوداع وأيّامِ الفراق ونيران الشوق وآلام الحبّ وقيود الضعف وتسلّط الخوف ومرارة اليأس وذلّ الهزيمة، ولكن القصيدة لا تكتسب قيمتها من الموضوع وإنما من الإحساس الذي تحمله بين سطورها وأنغامها، لأن الموضوع يتحوّل إلى رسوم وظلال تتنحّى أمام تدفُّق العاطفة وفيضانها، على حين يخترق الشاعر بإحساسه قلبَ

القارئ، فيُهيِّج ما فيه من جروح، ثم يستلُّها ويمضي.

قال ابن هذيل في وصف حمامة: (٢)

ومُرِنّةٍ، والدَّجنُ يَنسُجُ حَولَهَا
بُردَينِ مِن حَلَكٍ ونَوءٍ باكِ

مالَت على طَيِّ الجَناحِ، وإنما
جَعَلَت أرِيكتَها قَضِيبَ أراكِ

وتَرَنَّمَت لحَنَينِ قَد حَلَّتْهُما
بِغِناءِ مُسمِعةٍ، وأنّةِ شاكِ

ففَقَدتُ مِن نَفسِي لِفَرطِ تَلَهُّفِي
نَفَسَ الحَياةِ، وقُلتُ مَن أبكاكِ

هذه المقطوعة لا يكاد القارئ يبدأ بقراءتها حتى يختفي حاجز الكلمات، ويتوقَّف العقل عن التحليل والاستنتاج، وينطلق القارئ على أجنحة الخيال ليُشاهد بعيونه صورةً محسوسة، لمخلوق ضعيف لطيف، داهمته فجأة ظلماتٌ بعضُها فوق بعض، فيُفجِّر ذلك المشهد كلَّ ما في النفس من ضروب الرِّقة والعطف على تلك الحمامة، التي اصطبغ جمال صوتها بأنين الشكوى.

وبعد أن تمثَّل القارئ ذلك المشهدَ الحزين، وفاضت في أعماقه أحاسيسُ الرحمة والإشفاق، يُفاجأ في البيت الأخير بأن الحمامة أصبحت إنسانًا تُشبِه حالُه حالَ الشاعر، فيصبّ أحاسيسَ الرحمة على الشاعر، ويتَّصل بوجدانه، فيختفي الموضوع في هذه اللحظة تحت سلطان العاطفة، كما اختفت الكلمات من قبل تحت سلطان التصوير، وتتلاقى أحاسيس القارئ والشاعر في جوٍّ من الحزن يطغى على الموضوع، ويطمس تفاصيله ومعالمه.

ومن هذا النوع الذي يتنحَّى فيه الموضوع أمام العاطفة هذه القصيدة التي عنوانها دموع الرجال:(٣)

يا حَبِيبِي كيفَ بِتْنا نَلتَقِي
فَوقَ أوهامِ سَرابٍ وخَيالْ

لم يَعُدْ للوَصلِ قَلبٌ خافِقٌ
نَرتَجِي مِنهُ إيابًا ووِصالْ

يا حَبِيبِي والمَنايا دُونَنا
تُرسِلُ الأحقادَ سَيفًا ونِبالْ

لم يَعُدْ للحُبِّ أمٌّ أو أبٌ
ضاعَ ما بَينَ بُكاءٍ وارتِحالْ

يا حَبِيبِي لا تَلُمْنِي في الهَوَى
لَيسَ لِي، واللهِ، في اللَّومِ احتمالْ

ضاقَ بِي الكَونُ وما لِي حِيلةٌ
كِدتُ أفنَى مِن دُعاءٍ وابتِهالْ

يا حَبِيبي لا تَسَلْنِي ما الذي
أهلَكَ الأزهارَ في سَفحِ التِّلالْ

ما الذِي أبكَى حماماتِ الصِّبا
ورَمَى الحُسنَ بميدانِ الزَّوالْ

لا تَسَلني عن نهاري إنَّني
مُغرَمٌ باللَّيلِ مُذْ غابَ الجَمالْ

لستُ أرجُو من زَماني رَحمةً
تِلكَ قد باتَت ضُرُوبًا مِن مُحال

لا تَسَلْني وارتَقِبْ صَمتَ الدُّنا
يا حَبِيبي عندما تَبكي الرِّجالْ

في هذه القصيدة يتخيَّل القارئ صورة «رجل يبكي»، فيُحيطها بمشاعر الرهبة والجلال، ويُضيف إليها ما يشاء من أبعاد خيالية وتصوُّرات مظلمة، ويتنقَّل بهذه الصورة في رحاب مواقفَ وذكرياتٍ مرَّ بها في حياته، وكان فيها سخيَّ الدَّمع محطَّم القلب منكسر الوجدان، يرى نفسه فيها كقطرة ماء في كبد الصحراء، أو قشة في زبد البحر، أو ذرة غبار في قلب عاصفة.

إن هذه الصورة لتطغى، بلا شك، على كل التفاصيل المعروضة في القصيدة، وربما لو سُئِل القارئ عما تحويه القصيدة من عذاب البعد، ولوعة الفراق، ويُتم الحبّ، وعُري الطبيعة، وطول السهر، لأجاب بأنّ هذه الأمور ليست موجودة في القصيدة.

نعم هي موجودة، ولكنها تحوَّلَت إلى مشاعر مبهمة تشبه الموسيقا الحزينة الصاخبة، التي تُعزف في المشاهد التي ينتصر فيها الظلم ويموت البطل. وهكذا تكتسب القصيدة قيمتها مما تبثُّه في النفس من مشاعر الحزن والرهبة، وما يجده القارئ من عزاء وعِبَر في صورة الرجل الباكي، على حين تختفي التفاصيل الأخرى للموضوع، وتتحوَّل إلى ظلال مبهمة، ونغمات حزينة.

فللشعر الحزين إذن فوائد جليلة تتمثل في تطهير النفس الإنسانية من الانفعالات المضطربة التي تتراكم فيها بسبب التصوّرات المقلقة لمستقبل الإنسان ومصيره بعد الموت، والمواقف القاسية التي يمرُّ بها في مسيرة حياته، والإحساس الدائم بأن حدود الواقع تضيق عن تطلعات الروح.

«قال بعض الفلاسفة: إنّ للنفس كلمات روحانية من جنسّ ذاتها ... فإذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى، الحلو اللّفظ، التامّ البيان، المعتدل الوزن، مازج الروح ولاءم الفهم وكان أنفذ من نفث السحر وأخفى دبيباً من الرقى وأشد إطراباً من الغناء، فسلّ السخائم، وحلّل العقد، وسخّى الشحيح، وشجّع الجبان»(٤).

### ثانيًا- شعر البطولة والمواجهة:

حين يتخلص الإنسان من جزء من حزنه الخفي يستعيد بعض قوته، فيشعر بالسرور والتفاؤل، وربما يفكِّر في تحدِّي سطوة الزمن ومرارة الواقع، وفي هذه الحالة يميل إلى الشعر الذي يحمل بين نغماته روح التمرُّد والمواجهة مع قوى الطبيعة وظلم البشر وقسوة الواقع، وحين يتصل به يستمدّ منه العزيمة والقوة، ويطرح في عالمه كلَّ ما في نفسه من ضعف وتردُّد، فيعود للنفس صفاؤُها وتكتسي حلّة من التوازن والاستقرار.

قال عنترة: (٥)

إذا كَشَفَ الزَّمانُ لَكَ القِناعا
ومَدَّ إلَيكَ صَرفُ الدَّهرِ باعا

فلا تَخشَ المَنيّةَ والقَيَنْها
ودافِعْ ما استَطَعتَ لَها دِفاعا

وفي يَومِ المَصانِعِ قَد تَرَكْنا
لَنا بِفِعالِنا خَبَراً مُشاعا

أقَمنا بِالذَّوابِلِ سُوقَ حَربٍ
وصَيَّرنا النُّفوسَ لَها مَتاعا

حِصاني كانَ دَلاّلَ المَنايا
فخاضَ غُبارَها وشَرَى وَباعا

وسَيفي كانَ في الهَيجا طَبيباً
يُداوِي رَأسَ مَن يَشكو الصُّداعا

مَلأتُ الأرضَ خَوفاً مِن حُسامي
وخَصمِي لَم يَجِدْ فيها اتِّساعا

إذا الأبطالُ فَرَّت خَوفَ بَأسِي
تَرى الأقطارَ باعًا أو ذِراعا

حين يقرأ الإنسان هذه الأبيات، يشعر بالقوة والرغبة في مواجهة الواقع، لأنه يقتنع بأن البطل الذي ملأ الأرض خوفًا من سيفه ما هو إلا إنسان يُشبهه، فيلتفت في تلك اللحظة إلى نفسه ويؤنبها، قائلاً علامَ أيتها النفس صغرتِ وتملّكك الضعف، وجعلتني أحسُّ بأنني لا أقوى على مواجهة الحياة؟ ألا إني أمتلك من العزيمة ما يكفيني لخوض حرب وتغيير الدنيا، وقد يُطلق قلبه في عالم الشاعر فيستلهم منه الصبر والقوة، ثم يعود إلى الواقع وهو مكلّل بنشوة الظفر والانتصار، وقد ألقى في جوّ القصيدة وما يعقبها من لحظات تأمّل بعضًا مما في قلبه من ضعف وتردُّد، فيُتابع حياته متحدِّيًا تلك العقبات التي جعلته في وقت يميل إلى الاستسلام.

وقد يُعاني الإنسان من الظلم الاجتماعي، كتسلّط الآباء والأزواج والإخوة، وبعض أصحاب النفوذ الاجتماعي كالأغنياء وجهلة الدعاة، وقد يُعاني أيضًا من قسوة التقاليد، وفي هذه الحالة تمتلئ نفسه بالضيق وتزداد همومه إلى درجة قد يفقد فيها القدرة على الصبر.

ولكن حين يقرأ مثلاً قول عنترة الآتي يشعر بأن ما تراكم في قلبه من ضيق ذهب معظمه، وحلَّ مكانه إحساس بالرضا والراحة. قال عنترة: (٦)

أُعاتِبُ دَهراً لا يَلِينُ لِعاتِبِ
وأطلُبُ أمناً مِن صُروفِ النَّوائبِ

وتُوعِدُني الأيّامُ وَعداً تَغُرُّني
وأعلَمُ حَقًّا أنَّهُ وَعدُ كاذِبِ

خَدَمتُ أُناساً واتَّخَذتُ أقارِباً
لِعَوني، ولَكِن أصبَحوا كَالعَقارِبِ

يُنادونَنِي في السِّلمِ يا بنَ زَبيبَةٍ
وعِندَ صِدامِ الخَيلِ يا بنَ الأطايِبِ

ولَولا الهَوى ما ذَلَّ مِثلي لِمِثلِهِم
ولا خَضَعَت أُسْدُ الفَلا لِلثَّعالِبِ

فيا لَيتَ أنَّ الدَّهرَ يُدني أحِبّتي
إلَيَّ كَما يُدنِي إلَيَّ مَصائِبي

ولَيتَ خَيالاً مِنكِ يا عَبلَ طارِقاً
يَرى فَيضَ جَفني بِالدُّموعِ السَّواكِبِ

سأصبِرُ حَتّى تَطَّرِحْني عَواذِلي
وحَتّى يَضِجَّ الصَّبرُ بَينَ جَوانِبي

مَقامُكِ في جَوِّ السَّماءِ مَكانُهُ
وباعِي قَصيرٌ عَن نَوالِ الكَواكِبِ

وسبب الشعور بالرضا هو اقتناع القارئ بأن الإحساس بالظلم لم يكن ينجو منه أمثال عنترة الذي ملأ الأرض خوفًا من حسامه، يُضاف إلى ذلك أن القصيدة تمنح القارئ إحساسًا بأنه لو أراد الانتقام لاستطاع، فها هو عنترة يصبر مع القدرة على الانتصاف ممن ظلمه من أجل أنه يُحبّ، وفي هذا عزاء للقارئ وإحساس بأنه قد نال حقه.

ثم في شكوى الشاعر من ظلم الدهر تشتيت لإحساس القارئ بالظلم، ففي بداية القصيدة اتجه هذا الإحساس نحو الناس، ثم فجأة يتجه نحو الدهر، فيضيع جزء هنا وجزء هناك، ثم يتلاشى هذا الإحساس، في صور وذكريات، حين يذكر الشاعر عذاب الحب، وعدم قدرته على الوصول إلى محبوبته، وهذه الحالة تخلق في نفس القارئ تقبل حالة الاستسلام الهادئ المطمئن، اعترافًا بأن الكون أعظم من أن يُحيط به أو أن يتحكم به إنسان.

ولعل الإنسان يحتاج فعلاً إلى أن يكون قويًّا ثابتًا في وجه الحياة، ولكن الثبات المستمر والمواجهة الدائمة ذاتها قد يجرّان عليه ضيقًا واضطرابًا داخليًّا، إذا كان يطمح أن يجني الرحيق من كلّ زهرة، ويبني في كل ناحية قلعة، وينتصر في كل موقف. وذلك لأنه يواجه خصمًا لم ينتصر عليه أحد ألا وهو الزمن. وفي هذه الحالة يحتاج أن يضع في حسبانه أن قدرة الإنسان محدودة بطاقات، ومحكومة بنواميس كونية لا تتغيَّر، إذ لا يوجد على ظهر الأرض سعادة مطلقة، ولا انتصار مطلق، ولا خلود يتوِّج الإنسان مَلِكًا على عرش إنجازاته وإبداعه.

نعم عليه أن يُوقن أن كلَّ نجاحاته وانتصاراته سيلتهمها الزمن، حين تفيض روحه، وربما يحتفظ الزمن ببعض منها، ولكن بعد أن تتحول إلى معانٍ وعِبَر، وبعد أن يكون صاحبها قد ارتحل إلى المجهول.

عليه إذن أن يتقبل أن أمامه فسحة قصيرة من الزمن، وقطعة محدودة من الكون، وقوّة لن تخترق أقطار السماء. فإذا ما استوفَى الأجل، ونال نصيبَه من السعادة، كانت في انتظاره سفينة الارتحال.

وهذه الحقيقة لم تكن غائبة عن ذهن أولئك الفرسان الذين فتحوا صدورهم للسيوف، وأمضوا حياتهم في ساحات الموت. فكانُوا أقوياء بما منحهم الزمن من فسحة، وما وهبتهم الحياة من لذة، وكانوا في الوقت ذاته يُسابقون الزمن وهم مستسلمون بطمأنينة ورضا لذاك اليوم الذي ينطفئ النور في عيونهم، ويصعدون فيه تلك السفينة في رحلة طويلة لا بدّ منها. قال عنترة: (٧)

بَكَرَت تُخَوِّفُنِي الحُتُوفَ كأنَّنِي
أصبحتُ عن غَرَضِ الحُتوفِ بمَعزِلِ

فأجبتُها أنَّ المَنيّةَ مَنهلٌ
لا بدَّ أنْ أُسْقى بكأسِ المنهلِ

فاقْنِي حياءَكَ، لا أبا لك، واعلَمِي
أنِّي امرؤٌ سأموتُ إن لمْ أُقْتلِ

هكذا يستسلم الأبطال بطمأنينة ورضا للمصير المحتوم، وهذا الاستسلام الهادئ ربما يتحوَّل في نظر بعضهم إلى ما يُشبِه الاستراحة الأبدية، فيتصاغر في قلوبهم وقلوب من يقرؤون أشعارَهم إحساسُ الرهبة من الموت، لتحلّ مكانه قوًى شعورية يحتاج إليها الإنسان في مواجهة الحياة ودخول أبواب السعادة.

ولكن لا بأس بأن يُعبِّر الإنسان عن ضعفه أمام الزمن، وخوفه من الرحلة المحتومة، فلعلّ الكلمات تستلّ أحيانًا من النفس بعض الحزن والقلق، فيحس القارئ بالراحة، وكأن السطور هي التي أصبحت تختزن الحزن وليس القلوب. قال ذُو الإصبَع العَدْوانِيّ: (٨)

جَزِعَت أُمامةُ أن مَشَيتُ عَلى العَصا
وتَذَكَّرَت إذ نَحنُ مِ الفِتْيانِ

## ثالثًا – وسيلة الشعر في الإقناع:

حين يدخل الشعر أعماقَ القلب يفتقد العقلُ سلطانَه، فيتخلَّص القلب ممّا يشوبه من حزن ويجد عزاءه في الكلمات الرقيقة والنغمات الهادئة، دون حاجة إلى الأدلة والبراهين والحقائق التي يحتاج إليها العقل في هذه الحالة لبناء المحاكمة العقلية المقنعة. ولهذا نجد أننا نقبل أمورًا كثيرة عن طريق الشعر، قد لا نقبلها من طريق النثر الذي يتحكَّم به سلطانُ العقل.

قال أبو هلال العسكري: «ومن صفات الشعر الذي يختصّ بها دون غيره أنّ الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتاً من الشعر احتمل.

ومن ذلك أنّ صاحب الرياسة والأبّهة لو خطب بذكر عشيق له، ووصف وَجده به، وحنينه إليه، وشهرته في حبّه، وبكاءه من أجله لاستُهجن منه ذلك، وتنقّص به فيه، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً».(٩)

فهذا الخليفة هارون الرشيد يتحدث، فيما نُسب إليه، عن حبِّه لثلاث من الجواري، ويذكر كيف يُطيعهنَّ وهنَّ يُخالِفنَه ويعصينَهُ، فيقول: (١٠)

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِساتُ عِنانِي
وحَلَلنَ مِن قَلبِي بِكُلِّ مَكانِ

ما لِي تُطاوِعُنِي البَرِيّةُ كُلُّها
وأُطِيعُهُنَّ وهُنَّ فِي عِصيانِي

ما ذاكَ إلاّ أنَّ سُلطانَ الهَوَى
وبِهِ عَزَزنَ أعَزُّ مِن سُلطانِي

وهذه الأبيات يتقبّلها القارئ مسرورًا، مفتِّشًا عما فيها من شكوى رقيقة، وعاطفة منسابة، دون أن يُنكِر على الخليفة الذي يحكم نصف الأرض أن يقولها. ولو أنشأ الخليفة خطبة مثلاً وتحدَّث فيها عن كلفه بتلك الجواري لما كان مقبولاً منه.

فالشعر إذن تسمح طبيعته للشاعر بأن يُعبِّر فيه عمّا لا

يستطيع أن يعبِّر عنه في النثر، فكأنه مطيّة خاصة تحمل ما لا تستطيع المطايا حملَه. والقارئ أيضًا يتقبَّل الكثير من الأمور في الشعر على حين لا يتقبلها لو وردت في النثر.

ولعل سبب ذلك أن الإنسان يتلقى الشعر بأحاسيسه، أي أنه يدخل النفس ويخاطب العالم الداخلي للإنسان، بعيدًا عن سلطان العقل. وهذا يعني أن القارئ لا يبني قناعات راسخة ومبادئ ثابتة من الشعر. ولذلك لا يُخشى على من يقرأ الشعر أن ينحرف سلوكه وأخلاقه، حتى وإن كان ظاهر الشعر يدعو إلى ذلك، كما في قول طرفة: (١١)

ألا أيّهذا اللاّئِمي أحْضُرَ الوَغَى،
وأن أشهَدَ اللَّذاتِ هل أنتَ مُخلِدِي

فإن كُنتَ لا تَسطيعُ دَفعَ مَنيّتي،
فدَعني أُبادِرها بِما مَلَكَت يَدِي

فلَولا ثَلاثٌ هُنَّ من عِيشةِ الفَتى
وجَدِّكَ لم أحفِلْ متى قامَ عُوَّدي

فمِنهُنَّ سَبقي العاذلاتِ بشَربةٍ،
كُمَيتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزبِدِ

وكَرّي إذا نادى المُضافُ مُحَنَّباً،
كَسِيدِ الغَضا، نبَّهتَهُ، المُتَوَرِّدِ

وتقصِيرُ يومِ الدَّجنِ، والدَّجنُ مُعجِبٌ
بِبَهكَنةٍ تَحتَ الطِّرافِ المُعَمَّدِ

كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفسَهُ في حَياتِهِ،
سَتَعلَمُ إن مُتْنا غَداً أيُّنا الصَّدِي

أرى العيشَ كَنزاً ناقصًا كلَّ لَيلةٍ
وما تَنقُصِ الأيّامُ والدَّهرُ يَنفَدِ

لَعَمرُكَ، إنَّ المَوتَ ما أخطأَ الفتى،
لكالطِّوَلِ المُرخَى وثِنياهُ باليَدِ

فهذه الأبيات ظاهرها يدعو إلى ما لا تقبله المبادئ الدينية والأعراف الاجتماعية. ولكن حين يقرؤها الإنسان يشعر بأن عنفوان الشباب يُخالط دمه، وأن قلبه قد امتلأ أملاً وتفاؤلاً وقوّة. ويلمح فيها صورة الفتى العربي الذي يتحدَّى الحياة وهو موقن بأنه سيموت في النهاية، ويتحدَّى الزمن فينال فيه السعادة التي يُريدها، وإن كان هذا الزمن يقف في وجهه.

أما ما تحتويه الأبيات من دعوة إلى هدم الأعراف والتقاليد فليس له سطوة التأثير والإقناع، بل هو أشبه بما يراه النائم في حلمه، ثم يزول عندما يودِّع الإنسان النوم ويستيقظ.

وتجدر الإشارة إلى أن إعجاب القارئ بالشعر يختلف بحسب اختلاف أحواله، فهو في لحظات الحزن يتعلق بأشعار الشكوى، وفي لحظات الضعف يطلب أشعار البطولة، وفي شبابه يُعجَب بأنواع محدَّدة وفي كهولته وشيخوخته تلائمه أصناف غيرها. ولهذا نجد أن أصحاب

المختارات الشعرية غالبًا ما يُضيفون إلى ما اختاروه أو يحذفون منه بحسب أحوالهم وأعمارهم، وما استجد لهم من ظروف الحياة.

* * * * *

واعتمادًا على ما سبق يمكن القول بأن من يقرأ الشعرَ الحزين لا يستجلبُ الحزن إلى نفسِه، كما يُظنّ، بل يُلقي في بحاره ما تحمله النفس من أحزان. ومَن يقرأ شعر التمرُّد والمغامرات لا يكون مذموم السلوك والأخلاق، بل يمنح روحه لذة الخروج إلى عالم الخيال الذي يتسع لتطلعاتها أكثر من اتساع الواقع. وحاله مع روحه تُشبه حال من يسمح لأطفاله بأن يلعبوا بالطين فيصنعوا ما شاؤوا من أشكال وتماثيل يفرِّغون فيها كلَّ ما في نفوسهم من تطلعات محبوسة وتساؤلات مبهمة قد لا تتسع لها زوايا البيوت وشرفاتها، فإذا بهم يمارسون الإبداع ويقطفون أزهار المتعة، حتى إذا انتهوا اغتسلوا وعادوا إلى حياتهم وواجباتهم مسرورين.

## الهوامش :

١. ديوانه، دار صادر، بيروت، ص٥٠٦. والبيد: جمع بيداء، وهي الصحراء. وتُتيِّمه: تجعله يحبها ويتعلَّق بها. والجيد: العُنق. والمُدام: الخمر. والكميت: الخمر.

٢. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٠، ٣: ٢٥٩. والمُرِنّة: الحمامة. والدَّجن: إلباس الغيم السماءَ. والحَلَك: الظَّلام، والنَّوء الباكي: الجوّ الماطر. والأريكة: ما يُتَّكأ عليه. والأراك: شجر السِّواك. وترنَّمَت: غَنَّت. والمُسمعة: المُغنِّية. والشاكي: الحزين.

٣. هذه الأبيات للكاتب.

٤. عيار الشعر، لابن طباطبا، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٥، ص٢٣. والبصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: الدكتورة وداد القاضي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ٧: ١٠٤.

٥. ديوانه، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٢، ص١٧١. وصرف الدهر: نوائبه التي تتصرف بالناس. والباع: قدر مدّ اليدَين وما بينهما من البدن. والمقصود هنا اليد على المجاز. والمصانع: موضع في جزيرة العرب. والذوابل: الرماح.

٦. ديوانه ص ١٠٣. والعواذل من النساء: جمع عاذلة: التي تلوم المحبِّين وتُضيِّق عليهم.

٧. العقد الفريد ١: ٩٧. والأبيات ليست في ديوان عنترة. والحتوف: جمع حتف، وهو الموت. واقني حياءَك، أي: الزميه.

٨. ديوان ذي الإصبَع العَدوانيّ، جمعه وحققه عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نائف الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل١٩٧٣، ص٩٩.

٩. كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨١، ص١٥٧.

١٠. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، ط١، دار صادر، بيروت ٢٠٠٤، ٣: ٧٧.
١١. ديوان طرفة، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢، ص٢٥.

## المصادر والمراجع


- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: الدكتورة وداد القاضي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨.
- ديوان ذي الإصبَع العَدوانيّ، جمعه وحققه عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نائف الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل١٩٧٣.
- ديوان طرفة، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢.
- ديوان عنترة، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٢، ص١٧١.
- ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٠.
- لعقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤هـ.
- عيار الشعر، لابن طباطبا، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٥.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨١.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، ط١، دار صادر، بيروت ٢٠٠٤.